

الأدبُ الهيليني

تأليف

الدكتور محمد غيلاب

أستاذ الفلسفة بالجامعة الأزهرية

الجزء الثاني

الطبعة الأولى

[١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م]

oboeikandi.com

الاهداء

إلى من اقتاد شبابنا في طريق الأبدية ، ونبه عقولنا ولما تزل فتية ، وسحر قلوبنا وهي غضة ندية ، فاماط للأولى النقاب عن الحكمة الإغريقية ، فبدت في قمة ما أنتجته الإنسانية ، وسكب في الثانية من أشعة الأنوار العلوية ، ما جعلها خليفة بتذوق الآداب الهيلينية ، التي ليست سوى نفثات سحرية ، صيغت في صور أسطورية .

إلى من اصطفاه الشرق لمادة الأدب العربي فاحتذى فيه أسى مثال ، واختارته مصر لوزارة معارفها فلم يرض لها أدنى من مرتبة الكمال .

إلى عنوانات مصر اللامع ، وفخرها الساطع .

إلى ذلك العالم الكبير ، والمربي الخطير ، الدكتور طه حسين باشا أقدم هذا السفر اعترافاً له بجميل سالف الإرشاد ، وتسجيلاً لفضله على الناطقين بالضاد .

محمد غنيم

أول مارس سنة ١٩٥٢

oboeikandi.com

مقدمة

يجمع الباحثون والنقاد ، بل المثقفون من القراء في هذا العصر على أن كل عمل أدبي هو حدث اجتماعي من نوع ما مادام أن الشأن في كل إنتاج أن يكون طابعه الأساسي المميز له هو اتصال معنوي بين المؤلف والقراء ، أو بين الفرد ومجتمعه الذي يعيش فيه ، وإذن فالجتماع هو الذي يتطلب الإنتاج الأدبي الذي يستطيع أن يسيغه ويضمه ، وإذا شئت أن تكون أكثر وضوحاً فقل : إن تباين المستويات في الجتماع هو الذي يلهم المؤلف أنواع الإنتاج دون أدنى توجيه عملي مقصود ، بل دون أي شعور من جانب أفراد هذا الجتماع ، إذ كثيراً ما يتولى توجيه المؤلف بجتماع نموذجي صيغ على غرار مثال سبق أو صورة خيالية لجتماع مقبل أنشأها في ذهنه الأسفل ، وتعبدها التفاؤل من غير أن يكون لها في بيئته عين ولا أثر .

يبد أن هاتين الحالتين المثاليتين تستلزمان من جانب المؤلف تضحية كبرى قد ينوء بحمل نتائجها طول حياته ، إذ يعيش بين معاصريه غريباً لا يكاد أحد منهم يفهمه أو يتذوق إنتاجه ، فإذا كان مخلصاً في رسالته ، وفياً لأمته ، أحس بالحاجة الملحة إلى هذه التضحية بمنافعه الذاتية ، بل بمجده وسمعته إما في سبيل سير الفن نحو الكمال ، وإما في سبيل إيقاظ نوع من الشعور ولون من المعرفة لدى معاصريه ينسجمان مع شعوره ومعرفته . ومصدر هذه التضحية هو أن مهمة القارئ نحو المثل العليا ليست بالأمر الهين اليسور لكافة الكتاب ، إذ أنها تقتضي التسامح عن الإنتاج الرخيص ، وتستدعي الترفع عن ذلك التملق الوضع المشوم الذي يكرهه بعض المؤلفين للجماهير كيلا يغير حساب عندما يقدمون إليها مؤلفات خالية من الفن الرفيع بعيدة عن الأخلاق العالية ، ولا جرم أن النتيجة الحتمية لوفرة هذه المنتجات وذيووعها هي خلق جو عقلي مسف لا يعود على أحد بخير ، إذا استثنينا تلك المنافع

الفردية العابرة التي تعود على أولئك المؤلفين الأنايين ردحا من الزمن ثم لا تلبث أن تنمحي وتصبح في خبر كان بعد أن يهوى أربابها في زوايا النسيان .

غير أنه لما كان الرأي العام في الشرق قد أصبح اليوم مشغولاً بالنهوض ، متعطشاً إلى المعرفة بحالة ظاهرة للعيان ، فقد دفعنا ذلك إلى التصميم على هذه الوثبة الجريئة التي تعتبر الأولى من نوعها في البيئات العربية ، وهي القذف إلى لغة الضاد بهذا الإنتاج الضافي الذي يقع في خمسة مجلدات مفعمة بالبحث في ذلك الأدب الهيليني العريق المتشعب الأغصان . وغايتنا التي نهدف إليها من وراء هذا المجهود هي تثقيف شباب الشرق بهذا الأدب الساحر الذي جمع إلى رشاقة الصور عمق الموضوعات ، وضم إلى متانة المعاني نبيل المرامي ، والذي لم يخلُ من التأثير بفتنته فرد واحد من ذوى العقليات الراجحة الممتازة بدقة الرأي ورقة الطبع ، والذي دانت لجلاله رقاب الأمم ، وعنت لسلطانه وجوه الشعوب في أوروبا منذ نشأة الدولة الرومانية إلى اليوم . ومن آيات ذلك أن مجرد ذكر اسم المنتجات الهيلينية في البيئات المثقفة يوحى إلى نفوس عارفيها المستنيرين إعجاباً عظيماً ، بل احتراماً ممزوجاً بحب ناشئ عن تقدير الجليل والاعتراف بهذا الفضل العظيم الذي لا يحدد مذهب في الغرب ولا في الشرق أن العالم الحديث كله مدين به للعقل والخيال الهيلينيين . ولقد أصبح من المتفق عليه ، بل من البديهي في كل الأوساط الأوروبية أن الفكر الهيليني هو وحده الذي كون العقلية الغربية كافة ، وأن المؤلف أو الكاتب الذي لم يتأثر بالخيال الهيليني في كتابته وفي تفكيره تعد منتجاته ضرباً من ضروب العامية الجافة المبتذلة ، لأن كل المستنيرين في أوروبا يؤمنون تمام الإيمان بأن ما يستمتعون به الآن من أدب رائع وثقافة خصبة ليس له إلا منبع واحد وهو التراث الهيليني .

ومن يعارض في هذه الفكرة العامة فليس عليه ألا أن يلقى على الأدب الفرنسي مثلاً نظرة فاحصة يستعرض فيها منتجات عصر النهضة أو مؤلفات : راسين ، وفينيون ، وبوالو ، ولافنتين ، ومليير وغيرهم من أعلام القرن السابع عشر ، وإذا ذاك يتبين له في وضوح أثر

التراث الهيليني فيها بصورة بلغت غاية الجلاء ، وبالتالي لايسعه إلا أن يغض الطرف احتراماً وإجلالاً أمام منتجات هذه العقليات الراجحة التي لم يكن أربابها يحملون بأنهم سيصبحون يوماً منارة عالية تنتصب في صدر أوروبا المظلمة الجوانب والأرجاء فتبدد حنادسها وتنفذها من دياجير الممجية والوحشية ، ولم يكن يدور في أخلادهم أن الإلياذة والأوديسا ، والأعمال والأيام ، والدائرة الحماسية ، ومآسى إسخيلوس ، وسوفكليس ، وأوربيديس ، ومهازل أريستوفانيس ، وخرافات إيسوبوس ستصبح منبعاً خالداً منزهاً عن النضوب يغترف منه أدباء العصور المقبلة ويتخذونه نموذجاً ينسجون على منواله ، وهادياً يسترشدون بنوره المتألق الذي لا يكاد ذهن الناشئ يتجه إليه حتى يتفجح خياله تفتح الزهور في فصل الربيع ، وتنمو خصوبته نمواً لا ترى الإنسانية بداً من الاعتراف بالفضل فيه لذلك الشعب العبقري الممتاز .

وإذا كان الأمر كذلك لدى هذه الشعوب التي أضحت تسير في طليعة ركب النهوض العالمي وقبضت على صولجان الثقافة العامة ، أفليس من دواعي الأسف أن نظل نحن جاهلين بهذا الأدب الرفيع ، أو منكشين في أنفسنا بعيدين عنه ، محرومين نعمة حسنه ، مسلوبين لذة سحره وفتنته ، بينما أن أسلافنا الأولين قد ساهموا في تكوينه ووضع أسسه الجوهرية ؟ وفي هذا يقول « جُمبرز » : « إن العبقريّة الهيلينية - بفضل الإعدادات الأولية التي قام بها المصريون والبابليون - قد استطاعت أن تظفر بوثبتها حرة من كل قيد ، وقفزت قفزة واحدة فوصلت إلى أرفع قمة ممكنة » .

نعم أليس من دواعي الأسف كذلك أن يكون هذا الجهل بالأدب الهيليني عقبة كأداء تحول بين السواد الأعظم عندنا ، أستغفر الله ، بل بين الصفوة المثقفة منّا وبين تفهم أصول الفكر الأوروبي وطرائق البحث وقوانين الموازنة والاستنباط عند هذه العليّة الغربية التي بينما كان أسلافنا الأبحاد منغمسين في نور العلم والمعرفة ، كان أجدادها بدائيين يهيمون على وجوههم في الغابات والأدغال ويصطادون الحيوانات البرية فيشؤون جلودها وينبذون

لحومها جهلا منهم بما يؤكل وما يندك كما يقرر ذلك النزهاء من كتابهم ومؤرخيهم ؟ ولكننا مع الأسف الشديد - قد نمنا واستيقظوا ، وغفلنا وانتبهوا ، فلما فتحوا عيونهم اتجهت أنظارهم إلى آفاق الشرق الساطعة فبهرتهم أضواؤه المتألثة ، وسحرتهم كنوزه النفيسة في العلم والفن والأدب والأخلاق ، وقصارى القول في جميع نواحي الحياتين : العقلية والروحية ، وإذ ذاك لم يهملوا الفرصة التي أتاحت لهم ، بل لم يتوانوا لحظة واحدة في العض عليها بالنواجذ والاستفادة منها بصورة نهمة مشغوفة ، وهكذا تخلفنا نحن عن الركب وفاتتنا القافلة ، وظلوا هم يمدون في طريق التقدم والمدنية عدواً متواصلاً حتى سبقونا بأشواط بعيدة .

غير أن هذا التراث الشرقى لم يترك أثره في البيئات الأوروبية إلا بعد أن عملت فيه العبقرية الهيلينية عمل النحلة في الزهور التي تلتهمها ثم لاتزال تسلط عليها مافي طبيعتها من قوى متتابعة حتى تحولها عسلاً شهياً ، ولهذا لم يكن لمن أراد فهم الفنون الجميلة فهماً صحيحاً ، وتذوقها إلى أعماقها بُد من استكناه نشأتها وتتبع تطوراتها المختلفة ، وهذا لا يتيسر إلا عن طريق السير معها من الشرق القديم إلى إينديا ثم إلى أثينا ثم إلى الإسكندرية ثم إلى روما ثم إلى وراثتها من الأمم اللاتينية الثلاث : إيطاليا ، وفرنسا ، وإسبانيا .

على أنه لو لم تدع إلى الانغماس في بحر الأدب الهيليني ضرورة التشقف والمعرفة وإدراك الفنون الجميلة وتذوقها ، لدعا إلى ذلك سحره الطبيعي وفتنته الفطرية ، ووفرة اللذائذ العقلية والروحية التي تغمر السابحين فوق صفحته الصافية إلى حد لاتدع معه لشأن آخر من شؤون الحياة أدنى نصيب ، ولم لا ؟ أفلم يسحر اسم « هوميروس » في الماضي ، ولا يزال وسيظل يسحر كذلك جميع العقليات الممتازة من مختلف الأمم وفي متباين العصور ؟ أوليس من آيات ذلك مايكتبه « جوت » Goethe . سيد عباقرة أدباء ألمانيا بقلم « فرتر » Werther . إلى صديقه فيقول : « أنت تسألني عما إذا كان ينبغي أن ترسل إليّ كتي ، وأنا أرجوك باسم السماء أن تعفيني من هذا العبء ، إذ لا أريد بعد الآن أن يقتادني أو يشجعني أو يهيجني شيء ، وإنما أنا في حاجة إلى أغنية مهدئة مسكنة ، وقد وجدت في هوميروس هذه الضالة المشودة بكل مميزات انسجاماتها » .

وإذا غادرنا ألمانيا إلى فرنسا التقينا فيها بمثل أبرز وأعرق وأفصح من جوت في الإشادة بهذا الأدب الفاتن الرفيع ، وهالك على سبيل التمثيل : رينان «Renan» فانظر ماذا يقول في صلاته على أكروبوليس ^(١) «Acropolis» مبتهلاً إلى أثينيه :

« أيها النبل ، أيها الجمال الحقيقي البسيط ، أيتها الإلهة التي ليس معنى عبادتها سوى « العقل والحكمة نفسيهما ، أنت التي معبدك ذاته درس أبدى في الضمير والإخلاص ، « إني وصلت متأخراً إلى عتبة أسرارك . . . أنت وحدك الشباب يا كورا ^(٢) ، وأنت « وحدك الطهارة يا عذراء ^(٣) ، وأنت وحدك البريئة يا وِجِنيا ^(٤) ، وأنت وحدك القوة « يا انتصار ^(٥) ، إن لديك كل ما يفتقد عند « آريس » يا أريا ^(٦) ، والسلام غايتك « يا أديا ^(٧) ، أيتها الديمقراطية أنت التي عقيدتها الأساسية هي أن كل خير يأتي عن طريق « الشعب ، وأن كل مكان لا يوجد فيه شعب يلهم العبقرية ويغذيها لا يوجد فيه شيء . . « علمينا كيف نستخرج الماس من الجماهير الملوثة . . . يا قوة زوس ، أيها القبس الذي « يشعل النار ويحفظها لدى الأبطال والعباقرة إصنعى منا روحانيين يصلون إلى حد الكمال . «

وإذا كانت أوروبا قد تأثرت بهذا الأدب الهيليني البديع ، أفليس الشرق - وهو مهد الشعر الساهر الأخاذ - أولى وأجدر بأن يفتتن بهذا التراث الخالد فيضمه إلى إنتاج أسلافه ليُكوّن من ثمار الجنسيتين مزيجاً صالحاً لتغذية الشباب وإخصاب أخيلته ودفعه إلى ميادين الإجابة والإتيان ؟

بان إذن مما تقدم أنه يجب على كل مثقف شرقي ينبغي رقى الناحية العقلية في بلاده أن يعمل على نشر المنتجات الهيلينية فيها وجعلها في متناول شبانها ، فإن ذلك هو الوسيلة المثلى

(١) أكروبوليس قلعة في أثينا القديمة فوق صخرة يبلغ ارتفاعها نحو مائة وخمسين قدماً وهي مكنظة بالآثار والمعابد وفي قمتها أجل هذه المعابد على الأخلاق وهو پارثينون «Parthénon» معبد الإلهة أثينيه (٢) كورا أي حامية الفتيات . (٣) العذراء أي الفتاة التي لم يمسه أحد . (٤) هجيا أي الصحة . (٥) انتصار ومعناه واضح . (٦) أريا أي الشجاعة الحربية (٧) أديا أي السلام وكلها أسماء تطلق على أثينيه إشارة إلى اختصاصاتها المتعددة وهجيا وإن كانت إلهة أخرى مختصة بالصحة وهي حفيده أبولون وابنة أثكليوس إله الطب إلا أن هذا الاسم قد أسند إلى أثينيه وغلب عليها حتى طغى في بعض الأصقاع الهيلينية على الإلهة المختصة لصغر مكانها بازاء أثينيه .

لتحقيق النهضة لدى الشعوب الطامحة إلى حياة كريمة متوثبة ، والكلفة بمسيرة الأمم الراقية في هذا العصر الذى محور مميزاته الثقافة والعرفان .

يبد أنه يجب على من يعرض لدراسة التطورات الأدبية أو الخلقية فى شعب من الشعوب من خلال آدابه أن يعنى قبل كل شىء بتحديد منشئه وحالته الاجتماعية قبل أن يُنتج هذا الأدب ، وأن يتبين ما هى مميزاته العنصرية ، وإلى أى حد من التطور والرقى بلغت هذه المميزات فى مبدأ إنتاجه ذلك الأدب ، وما نحن أولاء سنبدل قصارى جهدنا فى إمطة النقاب عن هذه المميزات الضرورية لفهم الأدب الهيلينى ، وتلك المحاولة هى التى ستكون طليعة بحوثنا فى هذه المؤلفات .

لقد سلكنا فى هذا الكتاب ذات المنهج الذى سلكه كل كبار مؤرخى الأدب فى عصرنا الحاضر ، والذى نستطيع أن ندعوه بمنهج الحياد ، وذلك النوع من البحث هو الذى اصطلح الناقدون على تسميته بالروح التاريخية ليعارضوا به الروح القاعدية التى كانت مألوفة فى العصور الغابرة . ومجمل ذلك أن هذا اللون الجديد من الكتابة قد خلا من كل نية تهدف إلى موازنة الإنتاج الأجنبى المعد للدراسة بنموذج مثالى يختاره الباحث ، أو موازنته بأدب قومى خاص إذ أن المنهج العلمى الحقيقى هو ألا يصطحب الدارس معه أثناء دراسته أى مثال قد أعده من قبل ، أو قد استقر فى ذهنه استقراراً طبيعياً ، وألا يُبقى فى نفسه أدنى ميل إلى ثناء أو هجاء ، ولكنه يتجه إلى بحثه بعقل حر ونفس متعطشة إلى معرفة الحقيقة ، مشغوفة بالفن أكثر من شغفها بالنقد والحكم . ومنشأ ذلك أنه لما كان لكل جنس من الأجناس البشرية مواهبه الخاصة التى تميزه عن غيره ، ولكل عصر طوابعه التى تفرق بينه وبين ما عداه من العصور ، فقد كان فى مقدمة واجبات الباحث أن يتعقب هذه المواهب وتلك الطوابع إلى أن يظفر بها بين سطور المنتجات التى يدرسها فيقدمها إلى قرائه مليئة بالحياة والقوة والوضوح حتى يجعلها فى متناول عقلية الرأى العام بعد أن تكون قد كشفت له عن ذاتها وأذاقته عذوبة أسرارها . وإذ ذاك وبعد الانتهاء من هذا الجهد الوجدانى الرائع الذى

يبدله الباحث في ذلك العمل البالغ أسى حدود الدقة ، وهو العرض النزيب ، إذ ذاك فقط يستطيع أن يحدد القيمة الحقيقية لتلك المنتجات التي يقوم بدراستها ، وبعبارة أصرح وأوضح يستطيع تعيين مكانة تلك المنتجات من صفوف الأدب والفن ، ولا جرم أن هذه الخطوة هي إحدى طرائق النقد كما أفهمه وكما عبر عنه الناقد الفرنسي الممتاز سانت بوف بأنه يتكون من دراسة موهبة كل مؤلف على حدة حسبما تقتضي طبيعته الخاصة فإذا تمت للباحث هذه الدراسة التحليلية ، وجب عليه بعد ذلك أن يعرض هذه المواهب كما بدت له مفصلة وأن يصورها أصدق تصوير محالاً إبراز خصائصها الجوهرية ومميزاتها الأساسية . وعلى ضوء هذا يقيس له وضعها في مكانتها من صفوف الاعتبار الفني المجرد من كل شوائب العمل وعلائق الانحياز والمحاباة^(١) .

والسبب الذي يوجب سلوك هذا النهج هو أنه كما في الطبيعة حقب إزهار ونضوج وذبول ، كذلك يوجد في الأدب في عصوره المتعاقبة مواهب متباينة تختلف قوة وضعف باختلاف الظروف والأحوال ، وكذلك توجد عوامل متنافرة تترك في الإنتاج الأدبي من التضاد والتعارض ما يلتئم مع سلطان تلك العوامل ، ولا شك أن هذه الأحوال كلها تحتم على مؤرخ الأدب ألا يغفل شيئاً من هذه الملاحظات ، ومن أجل ذلك السبب ذاته أفسحنا في مؤلفاتنا هذه أمـكنة واسعة لأفذاذ عباقرة الهياين كهوميروس وهزiodوس ، وسوفـكليس ، وأوربيديس ومن إليهم .

ولعل مما ينبغي الإشارة إليه هنا من المنهج الذي رسمناه لأنفسنا أننا عنيينا بترجمة نماذج من النصوص في جميع العصور المختلفة ، وسر هذا أننا نعلم علم اليقين أنه عن هذا الطريق وحده يمكن إنماء حب ذلك الأدب الفاتن في قلوب قرائه ، وكل ما نرجوه في هذا الصدد هو أن نكون قد وفقنا إلى حسن اختيار تلك النماذج ، إذ مما لا ريب فيه أن البحوث العصرية العميقة التي تنتظر من ورائها فوائد محققة ، والتي لهذا تجب الإحاطة بها ولا يصح إهمالها هي

(1) Sainte - Beuve, Causeries du Lundi t.xII, P.191

دائماً مصحوبة بنصوص تعد العقول وتبهي النفوس للدراسة المباشرة وتشد العزائم إلى تتبع كل شيء في موطنه الأصلي .

وبهذه المناسبة لا يسعنا إلا أن نبدي أسفنا على أننا لم نستطع حتى الآن أن نترجم إلى لغة الضاد نصوص الأدب الهيليني كاملة ، ونرى إزاماً علينا للحق وبراً بأوطاننا العربية أن نتقدم بأبهى صور الحمد وأصفى ألوان الثناء إلى حضرة صاحب المعالي الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين باشا على أنه كان - بعد الأستاذ البستاني - طليعة الذين نقلوا إلى اللغة العربية الحديثة جانباً من هذا الأدب الرائع نقلاً ذا قيمة أدبية ممتازة ، لأن كل الذين حاولوا البروز إلى جانبه في هذا الميدان كانوا أقزاماً حول عملاق عظيم إذ أن هفاتهم - أستغفر الله - بل سقطاتهم تجل عن الحصر وتدق عن الإحصاء فمن خطأ مزعج في الترجمة إلى خلط معيب في الوقائع والأحداث ، إلى جهل شائن بالأساطير ، إلى بعد شاسع عن الأساليب الأدبية الراقية ، إلى خلو مخجل من الاصطلاحات الفنية ، إلى مجافاة صريحة للروح الهيلينية ، وبالإجمال لم يكن ما ترجمه هؤلاء السادة مشرفاً ، بل لم يكن مقبولاً يحسن السكوت عليه كما يقول النحاة .

وفوق ذلك ، قد كان هذا المربي العظيم أول الذين غرسوا في نفوسنا منذ فجر الشباب في الجامعة المصرية القديمة حب الهيلين وفلسفتهم وأساطيرهم وشعرهم ونثرهم ومآسيتهم ومهازلهم بهيئة رسخت صورتها في تلك العقول الناشئة فحوت استعداداتها الكامنة وقواها الهيولانية إلى ملكات فعلية عرفت - بعد أن وجهت توجيهها مستقيماً إلى دراسة تلك المنتجات - كيف تلتهم هذه الزهور اليانعة فتضمها ثم تحولها إلى أغذية صالحة للطبقات التي تليها من الشباب . والفضل الأول والأخير في هذا التوجيه راجع إلى ذلك الأستاذ الحكيم .

أما وقد أشرنا هنا إلى الاعتراف بجميل التوجيه والإرشاد فقد نرى من الحق علينا للعلم والفضيلة أن نبعث بموفور الشكر إلى أولئك المؤلفين الأعلام الذين استرشدنا بهدى مؤلفاتهم من كتاب الغرب الأماجد ونخص من أفذاذهم بالذكر الأساتذة الفرنسيين الأجلاء ألفريد

وموريس كروازيه « Alfred et Maurice Croiset » وأمبير وبريجان « Humbert et Berguin » والأساتذة العظماء الألمانين « أوتفريد مولير » « Otfried Müller » و « برناردى » « Bernhardy » و « برج » « Bergk » على ما بذلوه من جهود جبارة فى عرض هذا الأدب الهيلينى المترامى الأطراف ، وتحليله وبحث نواحيه المختلفة ، وتعب مدار حوله من جدل ونقاش ، وتحقيق أحداثه ووقائعه بقدر الطاقة البشرية .

وأخيراً نحن نأمل أشد الأمل ، ونرجو أقوى الرجاء أن نكون قد وفقنا فى هذه الخطوات التى امتزج فيها الحذر بالجرأة ، والاحتياط بالوثوب ، والتريث بالإقدام ، ونبتهل إلى السماء أن تتفضل علينا بالمعونة فى هذا السير الذى بدأناه واعتزمنا مواصلته نحو السكالك متمنين المساهمة فى العمل على تعميم تداول هذا الأدب الساحر فى أوطاننا العربية كافة لنسد ما فى جوانب أدبنا من ثغرات ، ونكمل ما فى أطرافه من نقص ، ولنجارى أمم الطبقة الأولى فى النهوض ، ولا يفوتنا أن نعلن فى صراحة قبل الانتهاء من هذه العجالة أن السكالك من كل وجه هو لله وحده ، وأن البشرية كلها معرضة للخطأ والنسيان ، وأننا لهذا على أتم استعداد لتقبل النقد النزيه النبيل فى رحوبة وطلاقة وابتسام !!

محمد غراب

القاهرة فى يوم السبت ٥ يناير سنة ١٩٥٢

دراسة لأبد منيها

منشأ الأمة الهيلينية وتسميتها

تحدثنا أسطورة هيلينية قديمة أن الشواطئ القارية من بحر إجنيا وسواحل آسيا الصغرى كانت مأهولة في الأزمان الغابرة بسكان من برابرة الشمال ثم استعمرها قوم من المصريين والفينيقيين فنقلوا إليها مدنيتهم العريقة وهذبوها ، بل إن هذه الأسطورة قد اشتملت على أنشودة تقول إن الأثينيين مدينون بتأسيس مدنيتهم الجميلة لـ « ككرويس » المصري القديم . وهناك أسطورة أخرى تنبئنا بأن « ذانا ووس »^(١) « ملك مصر هو نفسه الذي بنى مدينة أرجوس التي كانت في عهد حرب تروادة أهم المدن الهيلينية جمعاء .

أما ثيبة فالهياين مدينون ببنائها لـ « كذموس » الفينيقي الذي أسسها بمساعدة أثينيه إلهة الحكمة وفي المكان الذي عينته له . هذا هو حديث الأساطير القديمة ، أما التاريخ فلم يقل كلمته الفاصلة عن أصل هذه الأمة قبل استقرارها في شبه جزيرتها ، بل ترك الباحثين يتخبطون يميناً وشمالاً في الحكم على العصور التي سبقت عصر الاستقرار . وكل ما قدمه إلينا من معونة على فهم منشأها هو أنه أنبأنا بأن تلك الأصقاع كانت ، فيما قبل ، مأهولة بجنس يدعى بالبيلاغوس وقد اختفى اليوم تماماً ، وكان هذا الجنس يشغل أيضاً آسيا الصغرى وإيطاليا ، وقد بقي من آثاره عدد من المباني الصخرية قد صف بعضها فوق بعض بدون ملاط ، وأنه حوالي القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل المسيح نزع إليها الهيلين

(١) ذاناووس هو أحد ملوك مصر الشقيقين وكان له خمسون بنتاً ولشقيقه خمسون ابناً ، فتزوج الأبناء الخمسون بنات عمهم . وفي ليلة العرس قتلت تسع واربعون منهن أزواجهن ، لحكم عليهن الآلهة بلاء إناء من غير قاع لا يسترحن حتى يملأ . وقد أصبح المحدثون اليوم يضربون المثل بهذه الأسطورة لمن يقضى حياته كلها في عناء أو في عمل متواصل فيقولون : إنه كبنات ذاناووس ، أو إن عمله كإناء الذاناووسيات .

وهم أحد الأجناس البشرية التي كانت تسكن في زمن غابر وادى الدانوب وقد انقسموا إلى أربع قبائل وهي :

(١) الْيُنْيَان : وقد استقروا في غربي إغريقيا القارية ووسطها . ومنهم ، أخيلوس و ، أوديشوس ، و ، ينستور ، و ، فيلكتيتيس ، وأياس .

وحوالى القرن الحادى عشر زحف فريق منهم إلى سواحل آسيا الصغرى واحتلوا الجزء الشمالى منها .

(٢) الْأَكِيَان : وقد احتلوا الجزء الجنوبى من إغريقيا الحالية المعروف باليلوپونيزيا وإليهم يرجع أكبر الفضل فى تأسيس المدينة الهيلينية الساطعة . ويظهر أنهم قد حاولوا غزو مصر فى عهد مينفتاح الأول حوالى القرن الرابع عشر أو الثالث عشر . ومن أبطالهم الأولين « أجاممنون » و « مينىلاؤوس » وقد حدثنا « استرابون » المؤرخ أنهم قد أعدوا عدة للهجرة فى عهد « أورستيس » بن أجاممنون . وقد تحققت هذه الهجرة فى عهود أخلافه إلى جزائر بحر إچيا وآسيا الصغرى . ولما هاجم الدريان قيا بعد اليلوپونيزيا ، نزح كثير من المقيمين منهم فيها إلى آسيا فانضموا إلى مواطنيهم وأسسوا بها مستعمرة قوية خصبة ، وقد نشرد فريق منهم والتجئوا إلى اليُنْيَان فى أثينا والذين بقوا منهم فى بلادهم صاروا عبيداً للمستعمرين مع أن الغلبة كانت لهم إلى حد أن كلمة الأكيان فى شعر هوميروس كانت مرادفة لكلمة الهيلين .

(٣) الْيُنْيَان : وقد نزلوا فى الجنوب الشرقى حيث أسسوا أثينا وما حولها . وعند ما أوى إليهم اللاجئون من ييلوپونيزيا أمام الفتح الدريانى ضاقت بهم بلادهم فارتحل فريق منهم كذلك إلى آسيا الصغرى سعياً فى طلب العيش وأسسوا فيها مع غيرهم على خليج أزمير مستعمرة نسبوها إليهم لغلبتهم على بقية الأجناس الأخرى المساهمة معهم فى تأسيسها وهى مستعمرة إِيْنِيَا ، بل إنهم قد أطلقوا اسمهم على جميع المستعمرات الهيلينية فى آسيا الصغرى .

(٤) الدُّرِّيَّان : وقد نزلوا أولاً في الشمال المركزي من إفريقيا . وحوالى القرن الحادى عشر زحفوا إلى بيلويزيا وطردها منها الأكيان واحتلوها واتخذوا اسيرتا عاصمة لهم ، فتألق نجمهم فيها وزعموا أنهم من نسل هيركليس ، وفيما بعد بعثوا حملات إلى رُودس ثم إلى آسيا الصغرى ، فاحتلوا الأولى وأسسوا في الثانية مع اليُنيان مستعمرة إينيا كما أشرنا إلى ذلك آنفاً .

ظل هذا الفريق الذى استقر بآثينا يطلق على نفسه تارة اسم « اليُنيان » وهو اسم قبيلتهم الأولى ، وتارة أخرى اسم الهياين وهو اسم الجنس العام الذى تفرعت منه الشعب الأربع ، وقد حملهم الطغيان على محاولة الاختصاص به . وأيا ما كان فقد جعلوه فيما بعد اسم جد اسطورى ينتسبون إليه ويزعمون أنه حفيد « پرومثيروس » الذى كبله زوس كبير الآلهة بالأغلال ، والذى سراه فيما بعد حين تعرض للأساطير والمآسى .

أما كلمة إغريق ، فإن المؤرخين رأوها للمرة الأولى في مؤلفات أرسطو ، ولكنه كان يقصرها على قبيلة صغيرة كانت تقيم في الساحل الغربى من إفريقيا الحالية . ولما كانت هذه القبيلة أقرب الشعوب الهيلينية إلى إيطاليا فقد أطلق الرومان اسم الإغريق على الهيلين جميعاً وقلدهم من أتوا بعدهم في هذا الإطلاق .

لا يحدثنا التاريخ - فيما عدا هذا - بشيء أكثر من أن ذلك الشعب لا بد أن يكون قد اتصل بشعوب أخرى سبقته بأشواط واسعة إلى الحضارة كالأمة المصرية مثلاً ، فأثارتها بمعارفها ، وغمرته بمدنيتها .

أما فلسفة التاريخ فإنها تؤكد لنا أن هذه الأمة تشتمل على عناصر خاصة تختلف عن غيرها من عناصر الأمم القديمة ، وفوق ذلك فإن لبيئتها الطبيعية التى تتكون من المناخ والموقع الجغرافى أثراً عميقاً فى خيالها وتفكيرها ؛ ولولا اجتماع هذه الميزات لها لما هضمت كل ما وصل إليها من المدينيات السابقة وطبعته بطابعها الشخصى ، وأعمت فيه خيالها الواسع ، واستخرجت منه تلك الكنوز الثمينة والدرر الغالية من فلسفات عميقة ، وأخلاق

سامية ، وآداب رائعة ، وإلا فلماذا لم تنتج هذه المعارف في ربوعها التي نشأت فيها مثل هذه النتائج الباهرة التي أنتجتها في ربوع أثينا ؟ .

مميزات الهيلين وعيوهم

يتمتاز الشعب الهيليني بالذكاء النادر ، والدقة العميقة ، والتفكير المتزن ، والخيال الخصب ، والحيوية والنشاط والانعطاف نحو سرعة العمل . وفي هذا يقول أرسطو : « إن الشعوب الشمالية قد وهبت نصيباً من قوة الإرادة ، ولكن حظها من الحيوية قليل ، والشعوب الآسيوية منحت شيئاً من الحيوية ، ولكنها سلبت قوة الإرادة ، أما الإغريق فقد جمعوا القوة المعنوية إلى الذكاء ^(١) » .

ومن أهم مميزاتهم أيضاً المرونة التي بلغت لديهم حد القدرة الكاملة على التصرف في الأهليات والاستعدادات التي هي عند غيرهم فطرية جامدة بحيث لا يكلفهم تغيير المهن أدنى مشقة ، بل إنهم يستطيعون تغيير ميولهم أنفسهم . وقد روعت هذه القدرة عقلاء الرومان عند ما أحسوا أن استعمارهم السياسي لبلاد الهيلين لم ينقذهم من خطر استعمار الهيلين الأدبي لروما ، وقد رسم لنا المؤرخ « جوفينال » في مرارة ولوعة صورة أمينة لمرونة الهيلين ، ووصفهم بأنهم استعمروا روما استعماراً خطراً لصلاحية كل فرد منهم لأن يكون نحوياً وخطيباً ومهندساً ورساماً وساحراً وطبيباً وهلم جرا ^(٢) .

ومن مميزات الهيليني أنه كان دائماً يكبح جماح إحدى الملكات بضدها حتى لا تنطفيئ ملكة على أخرى فيجعل الفكر يتغلغل في الخيال ، والتعقل يمتزج بالعاطفة ، والتأمل ينحدر إلى الهوى ولا تراه أبداً ينحاز بكليته إلى جانب واحد .

ويلاحظ الأستاذ كروازيه أن هذا التوازن في الملكات هو الذي كان السبب في

(1) Aristote, Politique, L. VII, ch. 7.

(2) AetM. Croiset, Histoire de La Littérature grecque, T. I, P. 4.

الاعتدال والانسجام اللذين يلتقي بهما القارىء فى المؤلفات العظيمة فى الأدب والفن الهيلينيين .

ولعل هذه المرونة كانت نتيجة دروس الطبيعة التى ألقتها عليهم بتأملهم الطويل فى مظاهرها المتباينة ، وسماعهم أحاديثها بأساليب متنوعة .

ويرى الأستاذ كروازيه عكس هذا رأى ، فيقرر أن الحيوية والمرونة الفطريتين هما اللتان دفعتا الهيلين إلى ملاحظة مظاهر الطبيعة المختلفة .

ومن هذه الميزات كذلك ميلهم إلى الاجتماع ، إذ آمنوا منذ أوائل عهودهم بال عمران بأن الإنسان لا يستطيع الحياة بدون تبادل المنافع الأساسية مع أخيه الإنسان . ومنها أيضاً حب الاستطلاع الذى لا يكاد ينفضب والذى يتمثل بأجلى مظاهره فى جميع أفرع حياتهم العلمية والأدبية بدون استثناء . فإذا عرضوا للفلسفة أو الأخلاق أو التاريخ أو الجغرافيا أو الرياضة أو الطبيعة رأيت حب الاستطلاع فى كل ما يعرضون له ممثلاً بأدق معانيه ، وهذا هو السر فى أنهم سبقوا غيرهم إلى وضع كبريات المشاكل على بساط البحث ، وإلى تعيين أسس المناهج الممكنة لحلها .

أما عيوبهم فمن أهمها التلون الذى يزعمون أنه مهارة والذى هو خطر أشد الخطر على الأخلاق والآداب ، إذ هو ينتج محو المبادئ فى الأولى ، وانعدام الثقة فى الثانية . ومنها كذلك المغالاة فى استخدام الحيلة والمكر للنجاح فى مشروعاتهم والانتصار على خصومهم ، وليس هذا عيباً إلا فى نظر الأخلاق السامية ، أما السياسة الاجتماعية فتعده فى طليعة المحامد التى تثبت لصاحبها التفوق .

لهذه الميزات بطرفيها الحسن والسيئ كانت دراسة الأدب الهيلينى قادرة على تكوين عنصرين خطيرين من عناصر التربية الإنسانية ، وهما عنصر التربية العقلية والتربية الخلقية .

اللغة الهيلينية ولهجاتها :

اللغة الهيلينية غنية في مترادفاتنا ، رشيقة في تعبيراتها ، مرنة في قواعدها ، قديرة على أن تتسع للمتضادات والمتناقضات من أفاين الحياة المختلفة ، وضروب الإنتاج البشرى المتباينة ، فهي كما وسعت الفلسفة بأنواعها : المادى والروحى ، والحسى والعقلى ، واليقينى والارتياضى ، وسعت كذلك الأدب الحاسى والغنائى والهجائى ، والتمثيل : مأسيه ومهازله ، والتاريخ الصحيح ، والأساطير الشيقة الساحرة ، والخرافات المفعمة بالحكم القيمة ، وبالعضات النافعة إلى غير ذلك مما يدل دلالة ناصعة على أنها لغة جديرة بالعظمة والخلود . وفوق ذلك فإن لها على السمع رنيناً موسيقياً لذيذاً .

أما لهجاتها الأدبية فهي خمس : الأولى اللهجة اليانية ، وبها كتبت الإلياذة والأوديسا ومؤلفات هز يودوس وبقية منتجات العصر اليانى ومبدأ النثر ، وهى أعذب اللهجات وأصفها لغلبة الحروف المتحركة فيها .

والثانية اللهجة اليلانية ، وبها كتبت أناشيد « ألكيوس » و « سافو » وهى أقل عذوبة من سابقتها .

والثالثة اللهجة الدريانية ، وهى لهجة الشعر الموسيقى ولاسيما شعر الجوقات ، وتمتاز بالقوة التى تصل أحياناً إلى حد الجفاف ، ولهذا ظل أثرها يسود بعض النواحي الأدبية حتى فى العصر الأثينى ، إذ جعل المسرحيون يكتبون بها أدوار جوقاتهم فى المأسى والمهازل .

والرابعة اللهجة الأتيكية وهى مشتقة من اللهجة اليانية بعد أن تطورت وصارت أكثر قوة وتركزا ، وقد كتبت بها منتجات العصر الأثينى من شعر ونثر .

والخامسة اللهجة العامة ، « Koinè » وهى مأخوذة من اللهجة الأتيكية بعد أن فقدت كثيراً من صفاتها . وقد كتب بها النثر الذين ظهروا بعد حملة الاسكندر .

خصائص الأدب الهيليني :

لا نريد أن نعرض في هذه الفصول الوجيزة إلا لأحد جوانب هذا الخضم الهائل الذي اغترف منه كثير من الأمم : قديمها وحديثها ما جعلها تشيد بمدنيتها وتباهى بها نظيراتها من الأمم المعاصرة ، لأننا لو حاولنا الإحاطة بكل ما أنتجته العقلية الهيلينية لأفينا ما قدر لنا في الحياة من أجل قبل أن ندرك هذه البغية العالية ، وهذا الجانب الذي سنقتصر عليه هنا هو الجانب الأدبي .

يمتاز الأدب الهيليني بثلاث مييزات جوهرية لفتت أنظار دارسيه منذ العصور القديمة ، وهي مييزات الابتداع والوحدة وسيادة العقل كل نواحي الإنتاج ، ولعل السبب في وجود الميزتين الأولى والثانية في هذا الأدب هو أن الهيلين - مع تعدد الشعوب التي عرفوها واختلطوا بها - لم يحاولوا أن يستفيدوا من آداب الأمم الأخرى التي فاقتهم في المدنية وسبقتهم إلى الثقافة كما استفادوا من علوم تلك الأمم ومعارفها ، فظل أدبهم بعيداً عن التأثر بالآداب الأجنبية وبقيت عناصره متجانسة متلازمة ليس فيها دخيل يشوه جمالها ، أو غريب يزيل انسجامها . وليست هذه هي حالة كل الشعوب القديمة ، فالرومان مثلاً تركوا أنفسهم يندمجون في الآداب الهيلينية حتى لا يكاد أحد يعرف لهم أدباً مبتدعاً مستقلاً عن الهيلين إلا الهجاء الذي برع فيه أدباء روما في العصور القديمة .

أما الميزة الثالثة ، وهي سيادة العقل في كل شيء ، فهي أن منتجاتهم - بما في ذلك الجوانب الخيالية منها - ليست من النوع الخفيف التافه الخارج عن أساليب الفكر المستقيم ، وإنما أخيلتهم ترفرف دائماً منحصرة في إطار العقل الراقى وداخل حدود الحكمة السامية وتعتبر الأوديسا إحدى اللوحات الأمينة الناطقة بهذه الميزة ، إذ ليس عن طريق المصادفة أن نلنى بطلها يتخذ التبصر والحكمة والحذر والاحتياط درعه المتين وحصنه الحصين في كل خطوة يخطوها ، وفي كل عبارة تنفرج عنها شفتاه ، وليس من المصادفة كذلك أن نشاهد

أثينية - وهى إلهة الحكمة - تقوم فيها بالدور الأول من بين الآلهة ، فتعان بهذا المظهر أن منزلة الصدارة هى للعقل وحده على كل ماعداه من اعتبارات الوجود . وليست هذه الظاهرة خاصة بمنتجات هوميروس فحسب ، بل إن جميع كتاب الهيلين وشعرائهم فى مختلف النواحي الثقافية متفقون على أن الإنسان الذى يهدف إلى فهم الكون وكشف خفايا الوجود « Homo Sapiens » قد تخلص من الإنسان العملى الذى يحصر نفسه فى استغلال هذا الكون واستخدامه فى منفعه الواقعية « Homo Faber » .

ومن أبرز ما تبدو فيه هذه الظاهرة الجليلة قول أنكساغوراس : « إن العقل هو الملك » « Nous basileus » ولعل هذه الميزة العظمى هى أساس الإعجاز الهيلينى الذى طالما تحدث عنه رينان وأمثاله من المحدثين .

ولا ريب أن أمة هذا شأن أدبها كفيلة بأن تنجب أرسطو مؤسس قانون المنطق الذى عصم أذهان الخاصة من البشرية عن الخطأ فى الفكر فيما يرى الكثيرون^(١) .

العصور التى أنشئ فيها هذا الأدب

اختلف مؤرخو الآداب القديمة فى تقسيم عصور الأدب الهيلينى ، وأجود هذه الآراء عندى هو أنه ينقسم إلى خمسة أعصر وهى : (١) العصر اليونانى . (٢) العصر الدريانى . (٣) العصر الأثينى . (٤) العصر الاسكندرى . (٥) العصر الرومانى .

فأما العصر الأول - وهو اليونانى^(٢) - فهو يمتد من القرن العاشر إلى القرن السابع ، وقد نشأت منتجاته فى إيونيا ، وهو ينقسم إلى قسمين يتمثل أولهما فى قصائد رائعة تقص

(١) احتزننا بهذا التعبير عن آخرين من الباحثين لا يرون هذا رأى ، ونحن منهم ، إذ تقرر أن المنطق قد نشأ فى الصين قبل أن يعرفه أرسطو . وإذا أردت تفصيل ذلك ومستنداته فارجع إلى كتابنا (الفلسفة الشرقية) .

(٢) اعتاد بعض كتاب العربية أن يعبروا عن العصرين : اليونانى والدريانى باليونى والدورى ، أما نحن فقد نسبناهما عمداً إلى الفسب الأوربى خلافاً لتعبيرنا فى كتبنا الفلسفية ، وذلك دفعاً لابس ، وطرذاً للنطق بأسماء الشعب الأربع : اليونان واليليان والدريان والأكران على وتيرة واحدة .

سير الأبطال والجاهدين ، وتروى أنباء العظماء والشجعان ، وتسرد آثار الآلهة من خير وشر ، ولكن هذه المنتجات قد اندثر منها الشيء الكثير ، بل لم يبق منها إلا درتا هوميروس الخالدتان : الإلياذة والأوديسا ، والدوائر التروادية . ولا ريب أنه لا يتصور باحث دقيق أن تكون هذه القصائد أول ما أنتجته القرائح الهيلينية من شعر حماسي . وإذا ، فلا بد من الإيمان بأنه قد سبقها كثير من القصائد البطلية عفت معالمها ظلمة العصور والجُهلُ بالقراءة والكتابة . ولما انتشر هذا اللون من المنتجات أثر في سكان إغريقيا القارية فنشأ من ذلك نوع آخر من الشعر أطلق عليه النقاد اسم الشعر التعليمي مثل منتجات هزئوذوس والتيجونية ، وقد أحدث هذا النوع في الحياة الأدبية تقدماً غير قابل للجحود .

أما العصر الثاني - وهو العصر الدرياني - فهو يمتد من القرن السابع إلى القرن الخامس وفيه ظهر الشعر الموسيقي وقد طبعت منتجاته بطابع من الرقي لم يسبق له مثيل ، إذ ظهرت فيه للمرة الأولى العواطف الشخصية ، والأحكام الوثيقة على نواحي الحياة المتباعدة ، وأعلن فيه المفكرون آراءهم في الأساطير القديمة في جرأة وإن كانت ممزوجة بشيء من الاحترام . وفي مبدأ هذا العصر قد ظهر القسم الأكبر من الشعر الدرياني ، وفي أواخره بدأ النثر يأخذ مكانه تحت الشمس وبدأت طلائع الفلسفة .

أما العصر الثالث أو الأثيني فهو يمتد من أوائل القرن الخامس إلى أواخر القرن الرابع ، وفيه حملت أثينا لواء الثقافة العقلية وأخذت تبعث من أشعة أضوائها إلى معاصراتها من المدن القديمة ما هو قين بتأثيرها وتثقيفها . وما ظهر من منتجاتها في هذا العصر كان كافياً لتخليد اسمها وتسجيل فخرها على صحيفة الزمن بهيئة لا ينال منها تتابع العصور ولا يحوها تبدل الظروف والأحوال . وليس أدل على ذلك من أن كبار كتاب أوروبا في العصور الحديثة قد اغترفوا أروع ما كتبوه من أثينا بعد مرور اثنين وعشرين قرناً على تاريخ ظهوره فوق مسارحها وفي دور تمثيلها . وفي هذا العصر الأثيني ظهرت مآسى « إسكيلوس » و « سوفوكليس » و « أوريبيديس » التي كانت أحد العوامل الهامة في

خلود أثينا ومآتى إلهام كتاب النهضة ومأساوي القرن السابع عشر فى أوروبا . وليست مآسى « فدر » و « أندروماك » و « أليكسندر » و « إيفيجينى » وغيرها من فرائد « راسين » كبير مأساوي فرنسا إلا برهاناً ناصعاً على صحة ما نقول . وفى ذلك العصر أيضاً ظهرت مهازل « أرستوفانيس » التى ظاهرها فيه الابتسام والسخرية ، وباطنها حكم عالية ، وعظمت بالغة كان لها فى تهذيب الشعب وتنقيفه أثر واضح . وفوق ذلك فهى التى أوحى إلى « ملير » أن يكتب مهازله الفاتنة التى استفاد منها العالم الحديث فوائد جليلة الخطر وإن كانت فى أسلوب ضاحك ساخر . ويمتاز ذلك العصر الأثينى كذلك بأن النثر قد أصبح فيه أداة قوية صالحة للكتابة والخطابة والبحث الفلسفى ، والتحليل النظرى ، وصول فيه الفلاسفة ويجولون ، ويهرج به الخطباء ويسفستون .

وأخيراً إن ذلك العصر هو الذى كشف العقل فيه نفسه ، ووضع فيه مناهج التفكير ومعيار العلم ، وبلغ فيه النظر آواجه الممكنة فى تلك الأزمنة .

وبالإجمال إن ذلك العصر أجل من أن يسحب عليه الدهر ثوب النسيان ، لأن « إسخيلوس » و « سوفكليس » و « أوريبديدس » و « سقراط » و « أفلاطون » و « أرسطو » و « بيركليس » و « ديمستينيس » « Démosthénès » و « اكسينوفون » كل أولئك غير قابلين للنسيان بطبائعهم ، وهم ليسوا إلا مرآة هذا العصر الصافية الأمانة التى ينعكس عليها كل ما فيه من ثقافة وعرفان .

أما العصر الرابع - وهو العصر الاسكندرى - فقد امتد من أواخر القرن الرابع إلى أواخر القرن الثانى قبل المسيح ، إذ لم يكد الاسكندر المقدونى يظاً أرض مصر ويأمر بتأسيس مدينة الاسكندرية ، ولم يكد البطالسة يجلسون على عرشها حتى بدأ ظل الثقافة العالية يتقلص من فوق أرض أثينا سالكاً طريقه فوق صفحة البحر الأبيض المتوسط إلى أرض القراعنة : ومنذ ذلك الحين صارت مدينة الاسكندرية - وهى عاصمة وادى النيل فى تلك الأزمان - مدرسة العالم كله فى الشرق والغرب ، وأضحت الهدف المقصود لكل متعطش إلى العلم

والاستنارة العامة . ولقد كانت هذه العظمة تتمثل على الأخص في معاهدها الفلسفية الراقية ومكتبتها الفخمة التي ارتفعت على أيدي ملوك البطالسة حتى بلغت الأوج ووصلت إلى القمة التي كان أولئك الأقبال المخلصون لنصرة الحركة العقلية في البلاد يحملون لها بها منذ أن ولوا عرشها .

إمتاز هذا العصر بأن عبقرية الأدباء قد اتجهت فيه إلى النظر والبحث حتى في المواطن التي كانت في العصور القديمة أبعد ما تكون عن البحث . وقد اقتادها هذا الميل إلى العناية بالفلسفة والرياضة والنقد ووضع القواعد النحوية ، وإخضاع كل المنتجات الأدبية لمناهج الفكر بهيئة انتهت إلى محو السذاجة الأولى من شعر هذا العصر محواً تاماً .

أما العصر الخامس - وهو الذي يدعوه الأدباء بالعصر الروماني - فقد امتد من القرن الأول قبل المسيح إلى أوائل القرن السادس بعده ، وكان أقل ازدهاراً من العصور السالفة التي أشرنا إليها بإيجاز ، إذ لم يكد تيار السياسة الرومانية القوى الجارف يطغى على بلاد الهيلين حتى اكتسح من فوق أرضها تلك المصاييح التي طالما أنارت السبل المظلمة أمام العالم الغربي القديم الذي كان يتخبط في ليل دامس من الجهل والوحشية ولاسيما الأمة الرومانية فهي أول أمة غمرتها المعارف الهيلينية وأفاض عليها الهيلين من ثقافتهم ومدنيتهم ما جعلها تفاخر العالم القديم بأنها طليعته إلى ميادين النور والعرفان ، وتبدل على العالم الحديث بأنها أستاذته في القوانين والديساتير وكل أنواع التشريع ، وليس الفضل في هذا كله عائداً إلى غير الأمة الهيلينية كما شهد بذلك التاريخ النزيه .

ومهما يكن من الأمر فإن الأدب الهيليني قد حيل بينه وبين التلاؤم في سماء الحياة منذ ذلك الحين الذي أجلست فيه الأقدار « روما » على عرش التفوق والسيادة على ماعداها من العواصم والأمصار ، ولم تعد الثقافة الهيلينية تنجب كبار العباقرة والممتازين في الأدب كما كانت الحال قبل ذلك العصر ، وإنما أضحي كل ما تنتجه هو بضعة أشخاص ممتازين بمواهب محدودة من حين إلى حين ، ولكن الذي سطع في ذاك العصر سطوعاً لا بأس به

هو الفلسفة والتاريخ . فمن أشهر أعلام الفلاسفة فيه : « إبيكتيتيس » و « أفلوطين » و « قُرفُزْيوس » « Porphyrios » و « الاسكندر الأفروديزي » « Thémistios » و « تيمستئوس » و « شميلسيوس » « Simplicios » وفي التاريخ « استرابون » « Strabon » و « فلوترخوس » « Polybos » و « يوليوس » . ولا يفوتنا هنا أن نشير أيضاً إلى آباء الكنيسة فان لهم في هذا العصر منتجات قيمة لا يصح الإغضاء عنها بحال . ومن أعلامهم « Clemens d' Alexandrie » « كليمنس الاسكندري » و « أوريجينيس » « Origenés » « القديس » « جان كريستوم » « Jean Chrysostome » أى ذو الفم الذهبي .

وما زالت هذه الأزمة العقلية تخنق بلاد الهيلين وتحكم أظفارها في عنقها حتى قضت عليها قضاءها الأخير في سنة ٥٢٩ م حين أعلن الأمبراطور « جُستنيان » إغلاق كل المدارس الوثنية الحرة في أثينا

أما وقد أشرنا إلى هذه العصور بإيجاز فإننا نشرع الآن في بيان كل عصر منها في موضعه من أجزاء هذا المؤلف الشامل .